الفصل الثالث

الأخلاق فى ضوء القرآن والسنة

obeikandl.com

ومن ضمن شروحه الحديثية وجهوده فيها الأخلاق في ضوء القرآن والسنة.

وهذا مؤلف من ضمن مؤلفات الشيخ، تعرض في هذا الكتاب إلى الأخلاق في ضوء الكتاب والسنة، وهذا إسهام من الشيخ في إرشاد المجتمع إلى أخلاق سيدنا رسول الله ﷺ. ومعلوم كما صح أن السيدة عائشة لما سئلت عن أخلاق رسول الله قالت: كان خلقه القرآن،[1] ولذلك سمى الشيخ الكتاب (الأخلاق في ضوء القرآن والسنة).

فقال الشيخ: إن الدعوة إلى الأخلاق هي دعوة إلى الإسلام في أعظم نتائجها وفي أطيب ما أثمرته تعاليمه من قيم رشيدة.

وقد حفل القرآن الكريم والسنة الشريفة بالدعوة إلى الأخلاق وتمثلت في الرسول ﷺ كل جوانب السمو، والكمال في الأخلاق، بل لقد استوعبها كلها فكان خلقه القرآن.

ثم قال الشيخ: ولما كان للأخلاق وزنها بين التشريع السماوي الحكيم، ولما كانت من الأهمية بمكان بحيث لا يقوم بناء إلا عليها، ولا تعم جوانب الحياة إلا بها، فقد وضحت مكانتها في الدين والحياة.

ولله در شوقي حين قال:

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه فقوم النفس بالأخلاق تستقم

ثم بين الشيخ الباعث له على كتابة هذا الكتاب، فقال: وقد رأيت من واجبي أن أقدم هذه الصفحات، متمحضة بها نيتي، وخالصة بها عزيمتي أن تكون ذات أثر مهم، ونتيجة مثمرة في هداية كثير من الناس إلى المنهج القويم الذي أرسى به الرسول ﷺ أصول الدعوة إلى الأخلاق.

---

(١) أخرجه احمد في المسند ،ج٤١،ص١٤٨،ح٢٤٦٠١.

ثم بين الشيخ منهجه في الكتاب فقال: وقد رأيت أَن أُقدم هذه الصفحات داعيًا الله أن تكون هداية لكثير من الناس إلى المنهج القويم الذي أرسى به الرسول ﷺ أصول الدعوة إلى الأخلاق متتبعًا بعض أخلاق الإسلام في ضوء ما جاء في القرآن والسنة؛ راجيًا من وراء هذه الكلمات أن يقرأها الشباب وغيرهم ممن أوشكت أن تفتنهم مغريات الحياة، فهي مناقشة علمية أمينة تقوم على العقل والنقل.

بين يدي الكتاب: بين الشيخ فيما مضى منهجه مجملاً ثم فصل بعد ذلك منهجه موضحًا بالأمثلة. فبدأ الشيخ: بتعريف الخلق. وبين أن النموذج الحي الذي تمثلت فيه طهارة الظاهر ونقاء الباطن، هو رسول الله ﷺ، ثم بين الشيخ من خلال القرآن والسنة أثر الخلق الحسن في علاج النفوس البشرية، ثم بين الشيخ منزلة الأخلاق من الإيمان، وبين وزنها وأثرها، ثم بين الشيخ منهجه ﷺ في توجيه المسلمين، ثم راح الشيخ بعد ذلك يعرض بعض النماذج من أمهات الأخلاق في الإسلام وأثرها على الفرد وعلى المجتمع... وهذا إجمال وإليكم التفصيل.

عرّف الشيخ الخُلق: فقال: الخلق هيئة نفسية ثابتة تصدر عنها الأفعال الحميدة من غير تكلف أو تعسف[1] ثم راح الشيخ يسقط التعريف على الواقع. فقال: وقد وثق الإسلام صلة الخَلق بخالقهم، وعمل على تزكية العلاقات الإنسانية وتنميتها، فمهد لها تربتها الطيبة المنجية، وذلل كل وسائل الولاء والنقاء بما أشاعه فيها من خصب، وما بثه

(١) وقد عرف ابن مسكويه الفيلسوف الإسلامى الخلق بقوله: هي حال للنفس داعية لها إلى أداء أفعالها من غير فكر ولا روية، وهذه الحال إما أن تكون طبيعية من أصل المزاج، كالغضب لأوْهَى الأسباب، والفزع من أدنى لأصوات والخوف على تافه الأشياء، وإما أن تكون مستفادة بالعادة والتدريب حتى صارت ملكة وخلقًا كشجاعة البدو وبأسهم نتيجة تفردهم عن المجتمع، ومساكنتهم الوحوش والضواري. تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراف لابن مسكويه.

في جوانبها من مكارم مترعة بكل المثاليات، وما طهر به مجرى حياتها من رذائل كانت تشكل ظلمات بعضها فوق بعض.

ثم بين الشيخ أن النموذج الحي الذي تمثلت فيه طهارة الظاهر، ونقاء الباطن هو رسول الله ﷺ فقال الشيخ: إن النموذج الحي الذي تمثلت فيه طهارة الظاهر، ونقاء الباطن هو السلوك النبوي الشريف، فقد بعث الله رسول الله ﷺ متممًا لمكارم الأخلاق، وموضحًا لها بسنته المطهرة قولاً وعملاً، واحتوت هذه المكارم آمال الناس في شتى الجوانب، وهيأت للحياة الطيبة مناخها الملائم، وجوها الرحب، وامتدت أنظارها الحية، وأبعادها الحانية حتى شملت القريب والبعيد، ومن يستقل بأمره ومن لا يستقل، ونلمحُ ذلك في ضوء العبارة البليغة التي قالتها السيدة خديجة بنت خويلد عندما رجع الرسول ﷺ يرجف فؤاده، ودخل عليها وقال: "زملوني زملوني"، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: "لقد خشيت على نفسي"، فقالت له خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق[1].

فالسيدة خديجة- رضوان الله عليها- عندما استشفت روحها العليا، وأبصرت أضواء الوحي الإلهي رقراقة على جبين الرسول ﷺ، طبقت ذلك على أحواله النابضة بكل مكرمة ومعروف، فرأت أن الكل إنما ينبع من مشكاة واحدة، فأصدرت حكمها بأن الله لا يخزيه أبدًا، وأقسمت على ذلك، وأردفت القسم بالدليل المطابق الذي يتضمن جماع مكارم الأخلاق.

ولقد تمثلت أعظم المكارم وأسماها في الرسول ﷺ فانبعثت من نفسه الشريفة عظمة الأخلاق المشرفة، ووصفه ربه بقوله: {**وَإِنَّكَ لَعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**} (القلم: ٤).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه باب بدء الوحي ،ج١،ص٧،ح٣.

ولقد شرحت السيدة عائشة- رضي الله عنها- ماهية الخلق النبوي في إيجاز ودقة؛ إذ تقول: كان خلقه القرآن[1]. يقول الشيخ معلقًا على كلام السيدة عائشة: والقرآن هو كلام الله العزيز الحكيم، فكأن كل فضيلة حض عليها، وكل صفة حميدة دعا إليها قد اتصف بها الرسول ﷺ، وهي تتركز في صفات مثلى وأسماء حسنى اتصف بها العلي القدير- سبحانه- وكانت هذه الصفات هي منابع الأخلاق الأصلية وجِماعها، يقول المرحوم الأستاذ محمود العقاد في كتابه الفلسفة القرآنية: وجِماع هذه الأخلاق كلها هو تلك الصفات التي اتصف بها الخالق- سبحانه وتعالى- في أسمائه الحسنى، وكلها مما يحمد للإنسان أن يروض نفسه عليها، وأن يطلب منه أوفى نصيب يتاح للمخلوق المحدود فيما عدا الصفات التي خص بها الخالق دون سواه.

ووقوف الإنسان على الفضائل الجلية، والتحلي بمكارم الأخلاق يحتاج إلى مقاومة لكل نوازع النفس والهوى، متأهبًا في كل ذلك بعزم الأمور، وهو ما قطعه الله على عباده من الأمور لمزيد أهميتها ومزيتها. قال تعالى: {**وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**} (الشورى: ٤٣)، وقال أيضا فيما يحكيه من وصايا لقمان لابنه: {**يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**} (لقمان: ١٧).

ولقد تجمعت مكارم الأخلاق في الرسول ﷺ فكان أحسن الناس خلقًا، وأطهرهم قلبًا، وأنقاهم ضميرًا، وأجملهم وجهًا، وأزكاهم رائحة، فجمع جمال الظاهر وصفاءه، وطهارة الباطن ونقاءه، عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا، وقال: ما مسست ديباجًا ولا حريرًا ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي قط أفٍّ، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته، ولا قال لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا.[2]

---

(١) سبق تخريجه في ص ٣١٠.

(٢)اخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير ،باب الشجاعه في الحرب والجبن،ج٤،ص٢٢،ح٢٨٢٠.

أثر الخلق الحسن في علاج نفوس البشر:

بين الشيخ أثر الخلق الحسن وكيف يعالج نفوس البشر فقال: وهكذا ترى نتيجة الخلق الحسن في الدنيا، وكيف يعالج به القرآن نفوس البشر بهديه الناجع، وشفائه لما في الصدور، وكيف يتحول به العدو المتربص إلى صديق حميم، وهنا يصل الإسلام بالإنسانية إلى مرافئ الأمان، وطمأنينة النفس، ويمسح كل ما علق بالجو النفسي من إحن وأضعان، ويزرع فيها كل معاني الولاء والتعاطف، حيث يتماسك المجتمع الإسلامي، وتعرف حياته معاني النبل والتسامح.

وقد طبق الرسول ﷺ ذلك قولاً وفعلاً، عن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- قال: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا، وكان يقول: "إن من خياركم أحسنكم أخلاقًا"(١)، كما بين ذلك بفعله فكان بحق الأسوة الحسنة، قال الله تعالى: {**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**} (الأحزاب: ٢١).

وفي الحديث المتفق عليه من حديث أم المؤمنين السيدة عائشة- رضي الله عنها- أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، قَالَ: "**لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**" (٢)

(٢)اخرجه البخاري كتاب بدء الخلق،باب اذا قال احدكم امين،ج٤،ص١١٥،ح٣٢٣١.

كما وضح الرسول ﷺ نتائج الخلق الحسن في الآخرة وأن المؤمن ليدرك به عند ربه درجة تبلغ في سموها مكانة الصائم القائم، فكأنها عبادة مستمرة تنشر ظلالها الوارفة في الحياة الدنيا وتؤتي ثمارها الطيبة في الآخرة، روى أبو داود عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: "إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم". ومعلوم أن الصيام والقيام لونان من ألوان العبادة، وهما أبعد العبادات عن الرياء والتظاهر؛ لما ينطويان عليه من الإخلاص التام لله؛ حيث يتمان في السر، ويملآن الوعاء الزمني كله؛ نهارًا بالصيام وليلاً بالقيام، فلا يعلم حقيقتهما إلا علام الغيوب، وإنما يصل المرء بحسن خلقه هذه الدرجة، لأنه بلغ في صفاء سريرته ما بلغه الصائم القائم فيها.

منزلة الأخلاق من الدين ووزنها:

بيّن الشيخ أن رعاية رسول الله ﷺ للأخلاق لا تقف عند بيان ما تضمنته من مثوبة الصيام والقيام فحسب، بل إن اهتماماته لتتابع مسيرة الأخلاق حتى تجلي لنا منزلتها (في الدين)، ومكانتها بالنسبة (للإيمان) ثم تبرز وزنها العظيم في (ميزان) العدل الإلهي يوم توضع الموازين القسط، بل إنه ليكشف لنا عن حفاوته بالأخلاق ورعايته لأربابها، فيوضح ما لها من مكانة مرموقة، ودرجة سامقة هي أعلى ما يكون في الجنة، ثم لا يقف أصحاب الأخلاق الحسنة عند هذه الدرجة الرفيعة، وإنما يكونون مع هذا أقرب الناس مجلسًا من الرسول ﷺ يوم القيامة.

أ- أما بالنسبة لمنزلة الأخلاق من الإيمان، فبها يكمل الإيمان، روى الترمذي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "**أَكْمَلُ النَّاسِ إِيمَانًا وَأَفْضَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ**"(٢).

(٢)اخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، جـ٥، صـ ٢١٠، حـ ٢٥٢١٨.

ب- أما بالنسبة لوزنها فهي أثقل ما يوضع في الميزان، روى الترمذي عن أبي الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ قال: "ما من شيء أثقل في ميزان العبد يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذيء..."(١).

ثم بين الشيخ أثر الخلق في دخول الجنة فذكر حديث الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، قال: "تقوى الله وحسن الخلق "ثم قال الشيخ: ويضمن الرسول ﷺ لأصحاب الأخلاق الحسنة أعلى الجنة، روى أبو داود عن أبي أمامة الباهلي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ "أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًّا، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه"، وروى الترمذي عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ وَالمُتَفَيْهِقُونَ» ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ فَمَا المُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: «المُتَكَبِّرُونَ»**" (٢).

ومن تفسير الرسول ﷺ للخُلق ما رواه مسلم عن النواس بن سمعان ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: "البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس"(٣)، وروى الترمذي بسنده عن عبد الله بن المبارك- رحمه الله- في تفسير حسن الخلق: قال: هو طلاقة الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى.(٤)

ولذا دعا الرسول ﷺ الناس جميعًا إلى مكارم الأخلاق منذ بدأ يقيم بناء الأمة، ولم يكن لديه سلطة قانونية يؤدب بها المخالفين، ولا ثروة يغري بها طلاب الدنيا. فما الذي

---

(١)اخرجه الحميدي في مسنده ،ج١،ص٣٧٩،ح٣٩٨

(٢) أخرجه الترمذي في السنن باب ما جاء في معالي الاخلاق ،ج٤،ص٣٧٠،ح٢١٨.

(٣)اخرجه مسلم في صحيحه ،كتاب البر والصله،باب تفسير البر والاثم،ج٤،ص١٩٨٠،ح٢٥٥٣

(٤)ينظر سنن الترمذي،باب ما جاء في طلاقه الوجه وحسن البشر،ج٤،ص٢٤٧

جعل الناس يهرعون إلي دعوته ويضربون أروع الأمثلة في البذل والتضحية من أجله؟ إنها الطاقات الوجدانية التي ألهبت عواطفهم الجياشة بالإيمان اقتداء واهتداء بالنور الذي اتبعوه، وإنه الرصيد الجم من مكارم الأخلاق التي انبعثت من حياة الرسول ﷺ، فثبتت بها عقيدتهم، وترعرع بها سلوكهم، فشب من أعماقهم وازع الضمير، يقرع قلوبهم بين الفينة والفينة أن علام الغيوب مطلع يعلم السر وأخفى، وأن الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، وقال جل في علاه: {**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**} (المجادلة: ٧).

ثم قال الشيخ: لننظر نظرة سريعة إلى المسلمين الأوائل، كانوا إذا أصاب أحدهم نزغ من الشيطان فاقترف الخطيئة تحرك وازع الأخلاق من نفسه وأحس بفداحة جرمه، فيلتمس الطهارة منه، ويتقدم لنيل جزائه عليه في الدنيا. روى مسلم بسنده عن بريدة قَالَ: **جَاءَ مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، طَهِّرْنِي، فَقَالَ: «وَيْحَكَ، ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللهَ وَتُبْ إِلَيْهِ» ، قَالَ: فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، طَهِّرْنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَيْحَكَ، ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللهَ وَتُبْ إِلَيْهِ» ، قَالَ: فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، طَهِّرْنِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَتِ الرَّابِعَةُ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ: «فِيمَ أُطَهِّرُكَ؟» فَقَالَ: مِنَ الزِّنَى، فَسَأَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَبِهِ جُنُونٌ؟» فَأُخْبِرَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَجْنُونٍ، فَقَالَ: «أَشَرِبَ خَمْرًا؟» فَقَامَ رَجُلٌ فَاسْتَنْكَهَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ رِيحَ خَمْرٍ، قَالَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَزَنَيْتَ؟» فَقَالَ: نَعَمْ، فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ، فَكَانَ النَّاسُ فِيهِ فِرْقَتَيْنِ، قَائِلٌ يَقُولُ: لَقَدْ هَلَكَ، لَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ، وَقَائِلٌ يَقُولُ: مَا تَوْبَةٌ أَفْضَلَ مِنْ تَوْبَةِ مَاعِزٍ، أَنَّهُ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: اقْتُلْنِي بِالْحِجَارَةِ، قَالَ: فَلَبِثُوا بِذَلِكَ**

يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، ثُمَّ جَاءَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُمْ جُلُوسٌ، فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ» ، قَالَ: فَقَالُوا: غَفَرَ اللهُ لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ» ، قَالَ: ثُمَّ جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ غَامِدٍ مِنَ الْأَزْدِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، طَهِّرْنِي، فَقَالَ: «وَيْحَكِ ارْجِعِي فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ» فَقَالَتْ: أَرَاكَ تُرِيدُ أَنْ تُرَدِّدَنِي كَمَا رَدَّدْتَ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ، قَالَ: «وَمَا ذَاكِ؟» قَالَتْ: إِنَّهَا حُبْلَى مِنَ الزِّنَى، فَقَالَ: «آنْتِ؟» قَالَتْ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهَا: «حَتَّى تَضَعِي مَا فِي بَطْنِكِ» ، قَالَ: فَكَفَلَهَا رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ حَتَّى وَضَعَتْ، قَالَ: فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «قَدْ وَضَعَتِ الْغَامِدِيَّةُ» ، فَقَالَ: «إِذًا لَا نَرْجُمُهَا وَنَدَعُ وَلَدَهَا صَغِيرًا لَيْسَ لَهُ مَنْ يُرْضِعُهُ» ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: إِلَيَّ رَضَاعُهُ يَا نَبِيَّ اللهِ، قَالَ: فَرَجَمَهَا" (١).

وهكذا نرى كيف سمت أرواحهم وصفت، فحافظوا على أحكام الشريعة، ونفذوا حدودها مهما كلفهم ذلك.

ثم بين الشيخ بعد ذلك أن ما وصل إليه المسلمون كان بسبب منهج رسول الله ﷺ في توجيه المسلمين؛ يقول الشيخ: لقد جمع النبي ﷺ بين حجة البيان، وفصاحة اللسان، ولين الجانب، ورحمة القلب مما يؤلف بين القلوب، ويجمع الناس على كلمة سواء، قال الله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} (آل عمران: ١٦٨).

ولهذه الرحمة التي اتسمت بها جوانب الدعوة في حياة الرسول ﷺ كان حقًّا على المؤمنين أن يكون الرسول أحب إليهم من أنفسهم، وحكمه أنفذ عليهم، وحقه آثر لديهم؛ لأنه بهم في أمورهم في أمور دينهم، فهو حريص عليهم رحيم بهم، يعز عليه عنتهم،

(١)اخرجه مسلم في صحيحه،كتاب الحدود،باب من اعترف علي نفسه بالزنا ،ج٣،ص١٣٢١،ح١٦٩٥ .

ويخشى مغبة أمرهم لو وقعوا في تهلكة، أو أصابوا من حدود الله شيئًا، قال الله تعالى: {**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**} (التوبة: ١٢٨).

وهو أولى بهم في أمور دنياهم؛ فلقد وسعهم بحلمه ورحمته، وعطفه وشفقته، يقول قيس بن أبي حازم: أتى رجلٌ النبي ﷺ فلما قام بين يديه استقبلته رعدة، فقال له النبي: "هوِّن عليك، فإني لست ملكًا، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد". ثم يقول الشيخ: وهذه صورة من صور التعاليم المحمدية، التي اتسمت بها دعوته عليه السلام، وكيف كانت في حصافتها تعالج نواحي الحياة المختلفة، وتؤلف كل شارد، وتطيب كل سلوك غريب، جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَعْطِنِي، فَإِنَّكَ لَا تُعْطِي مِنْ مَالِكِ وَلَا مِنْ مَالِ أَبِيكَ، وَأَغْلَظَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَثَبَ أَصْحَابُهُ فَقَالُوا: يَا عَدُوَّ اللهِ تَقُولُ هَذَا لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَ: «عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَّا أَمْسَكْتُمْ» . فَدَعَاهُ فَدَخَلَ بَيْتَهُ فَأَعْطَاهُ فَقَالَ: «أَرَضِيتَ؟» قَالَ: لَا، ثُمَّ أَعْطَاهُ أَيْضًا، فَقَالَ: «أَرَضِيتَ؟» قَالَ: لَا، ثُمَّ أَعْطَاهُ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: «أَرَضِيتَ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَاخْرُجْ إِلَى أَصْحَابِي فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّكَ قَدْ رَضِيتَ؛ فَإِنَّ فِي قُلُوبِهِمْ عَلَيْكَ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَتَدْرُونَ مَا مَثَلِي وَمَثَلُ هَذَا الْأَعْرَابِيِّ؟، مَثَلُ رَجُلٍ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، مَعَهُ زَادُهُ وَرَاحِلَتُهُ فَنَفَرَتْ رَاحِلَتُهُ فَاتَّبَعَهَا النَّاسُ، فَمَا زَادُوهَا إِلَّا نُفُورًا، فَقَالَ: دَعُونِي فَإِنِّي أَعْلَمُ بِنَاقَتِي مِنْكُمْ، فَعَمَدَ إِلَى قُمَامِ الْأَرْضِ - يَعْنِي الْخَشِيشَ - فَجَعَلَ يَقُولُ لَهَا: هُوِّي هُوِّي، حَتَّى رَجَعَتْ، فَأَنَاخَهَا فَحَمَلَ عَلَيْهَا زَادَهُ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى مَتْنِهَا، فَلَوْ تَرَكْتُكُمْ حِينَ قَالَ مَا قَالَ [ص:٣٠٢] فَقَتَلْتُمُوهُ، دَخَلَ النَّارَ" [(١)].

(١) اخرجه ابو الشيخ الاصبهاني في الامثال في الحديث النبوي ،ج١،ص٣٠٠،ح٢٥٧

ثم قال الشيخ: كما كان من حكمته عليه الصلاة والسلام: أنه يخاطب الناس على قدر عقولهم، وبما يتواءم مع مداركهم، ويتناسب مع فطرهم وأساليبهم، ويسوق موعظته الحسنة في سماحة ويسر، روى أبو هريرة ﷺ قال: جاء رجل من بني فزارة إلى النبي ﷺ فقال: إن امرأتي ولدت غلامًا أسود وإني أنكرته، فقال له النبي ﷺ: "**هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟**» **قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «مَا أَلْوَانُهَا؟» قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: «هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَأَنَّى ذَلِكَ؟» قَالَ: لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ، قَالَ: «فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ**"[1].

وفي سبيل إقرار هذه التعاليم الحكيمة كان صلوات الله وسلامه عليه يخاطب الناس بلهجاتهم، عن كعب بن عاصم الأشعري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**لَيْسَ مِنَ امْبِرِّ امْصِيَامُ فِي امْسَفَرِ**" [2] يريد: ليس من البر الصيام في السفر، وهي لغة الأشعريين يبدلون اللام ميمًا. ومن أجل إقرار تلك التعاليم كذلك كان إذا تكلم كرر القول ثلاثًا ليفهم عنه، عن أنس بن مالك ﷺ، أن النبي ﷺ إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا حتى تفهم عنه، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم ثلاثًا[3]. والمراد بذلك سلام الاستئذان لمن يريد الدخول على قوم، فهوﷺ في كل ميادين دعوته يتسم بالأبوة الحانية والأخوة المتواضعة مع جميع الناس، يسوق تعاليمه وآدابه في يسر وسهولة، وحنان وإشفاق، فهو يقول: "إنما أنا لكم مثل الوالد، إذا أتيتم الغائط فلا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها".[4]

(١)اخرجه البخاري في صحيحه كتاب الطلاق ،باب اذا عرض بنفي الولد ،ج٧،ص٥٣،ح٥٣٠٥

(٢) اخرجه الشافعي في مسنده ،ج١،ص١٥٧

(٣) اخرجه البخاري في صحيحه ،كتاب العلم،باب من اعاد الحديث ثلاثا،ج١،ص٣٠،ح٩٤

(٤) اخرجه النسائي في الكبري ،كتاب الطهاره،باب النهي عن الاستطابة بالروث،ج١،ص٣٨،ح٤٠

وتطبيقًا لهذه الشفقة وإعلانًا لتلك الرحمة الهائلة، يرفع شعار التيسير عملاً وقولاً، فلم يخير بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم الله بها.

وكما رفع شعار التيسير عملاً، فقد رفعه قولاً، يأمر به أصحابه- رضوان الله عليهم- فعن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: "علموا ويسروا ولا تعسروا، وإذا غضب أحدكم فليسكت"(١).

كما كان في كل أوامره، وفي كل نواهيه، منتهجًا المنهج التربوي الصحيح كما علمه ربه، وكما جاء بذلك القرآن، فهو لا يأمر بكل الأوامر دفعة، ولا ينهى عن كل النواهي دفعة، وإنما يتبع في كل هذا وذاك التدرج حتى لا يمل الناس، وحتى لا يستثقلوا تعاليمه، فها هو ذا حين بعث معاذ بن جبل إلى اليمن يزوده بالتوجيهات الكافية، ويأمره أن يسير على سنن التدريج معهم فيقول له: "إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد علي فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب"(٢).

وبعد أن وجهه بهذا التوجيه قال له: "كيف تصنع إذا عرض لك قضاء"، قال: أقضي بما في كتاب الله. قال: "فإن لم يكن في كتاب الله؟" قال: فبسنة رسول الله، قال: "فإن لم يكن في سنة رسول الله؟" قال: أجتهد برأيي ولا آلو جهدا. قال معاذ: فضرب رسول الله صدري ثم قال: "الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله". وأيضًا فقد كان ﷺ يجعل للنساء أوقاتًا خاصة يجلس فيها إليهن لتلقي تعاليم الدين، فقد

(١) اخرجه احمد في المسند،ج٤،ص٣٩،ح٢١٣٦

(٢) اخرجه البخاري في صحيحه ،كتاب الزكاه،باب وجوب الزكاه،ج٢،ص١٠٤،ح١٣٩٥

جاء نسوة إليه، وقلن: يا رسول الله، ما نقدر على مجلسك من الرجال، فواعدنا منك يومًا نأتيك فيه، قال: "موعدكن بيت فلان"(١)، وأتاهن في ذلك اليوم. وتقول عائشة- رضي الله عنها-: نعم النساء نساء الأنصار؛ لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين.

هكذا تضافر المجتمع الإسلامي بكل أشكاله على تلقي شريعته، مسترشدا بآداب نبيه المعلم ورسوله القائد صلوات الله وسلامه عليه فعلى منهجه نسير، وبهداه نقتدي، حتى يفتح الله علينا بركات من السماء والأرض، فهو نعم المولى ونعم النصير.

وبعدما بين الشيخ منهج رسول الله ﷺ في توجيه المسلمين، راح الشيخ يعرض بعض نماذج من أمهات الأخلاق في الإسلام فبدأ بخلق النصيحة فقال الشيخ: والنصيحة من أمهات الأخلاق في الإسلام، وفوق أنها دعوة إلى الخير، وإرشاد للغير، فهي عبادة من أسمى العبادات، فإن المقصود بالعبادة جانبان.

الأول: شكر الله تعالى على نعمه الجليلة.

الثاني: مواصلة السعي إلى سعادة الإنسان وربحه دنيا وأخرى، ومن كمال الدين إرشاد الغير ونصحه، قال ﷺ: "الدين النصيحة"(٢)، وبهذا المنهج الإلهي تسمو النفس الإنسانية إلى الكمال، حيث لا يقتصر الإنسان على أداء الأمور الواجبة عليه فحسب، بل يحاول ما استطاع أن يسعد ذويه وإخوانه ويبث بينهم سعادة الإيمان وحلاوته، فيوجه النصح النافع والرشد الناجع.

ثم راح الشيخ بأسلوب رائع يبين قيمة النصح فقال: إن الله- تعالى- ربط الربح الحقيقي الذي تتمثل فيه النجاة دنيا وأخرى بالإيمان والعمل الصالح، وبالتواصي بالحق والصبر، قال الله تعالى: {**وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا**

(١) اخرجه احمد في المسند ،ج١٢،ص٣١٣،ح٧٣٥٧

(٢) اخرجه مسلم في صحيحه كتاب الايمان،باب بيان ان الدين النصيحة،ج١،ص٧٤،ح٥٥

الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)} (العصر: ١-٣). ثم قال الشيخ: فالله يوضح في هذه السورة أن للنفس الرابحة مسارين:

الأول: تقطعه من أجل كمال نفسها.

الثاني: من أجل كمال غيرها.

فالمسار المتعلق بكمال النفس فهو بالإيمان والعمل الصالح، وأما المتعلق بالغير فهو بالتواصي بالحق والصبر.

ثم بين الشيخ أن الله وجه هذه الأمة إلى سبيل الفلاح والفوز المتمثل في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال تعالى: **{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** (آل عمران: ١٠٤)، فإذا تبين أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو سبيل الفلاح والفوز، فإن تركه والنكوص عنه طريق للنقص، والتعرض لعذاب الله، عن ابن مسعود ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ "إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل: أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك. ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض: ثم قال: **{لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}** (المائدة: ٧٨،٧٩). ثم قال: "**كلا، والله لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الْمُسِيءِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَلَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ**" (١).

ثم علق الشيخ قائلا: وذلك لأن المنكر إذا ما أطلق له العنان، وسرى في مجتمع ما دون

(١) اخرجه ابو داود في السنن ،كتاب الملاحم ،باب الامر والنهي ،ج٤،ص١٢١،ح٤٣٣٦

وازع أو رادع يلوث مناخ البيئة، وينقل عدواه كالمرض الخبيث وعندئذ يسري أذاه بين المجتمع، من لم يصب فلا أقل من أن يتعرض لعواقبه الوخيمة.

من أجل هذا يؤكد الله- تعالى- مقاومته دومًا، وتناولت السنة تفصيل الطرق في مقاومته، ولم يعد لإنسان ما عذر من الأعذار في تركه، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"(١)، ثم علق الشيخ بهذا التعليق الرائع البسيط فقال: إن الإيمان ليرتبط بهذا الجهاد المقدس في ميدان العقيدة دفاعًا عن الخير، وحماية للحدود، وحتى لا تنطمس المعالم، ويتطاول أهل الباطل بباطلهم على الحق، يعبئون الحياة بالمنكر، ويلفونها بالظلام، وحتى لا يكون هذا، كان جهاد المسلم في مقاومة المنكر على درجاته الثلاث، من لم يستطع القيام به في درجة فعليه بالتي تليها باليد أو باللسان أو بالقلب، وليس وراء ذلك من الإيمان شيء، عن ابن مسعود ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: "ما من نبي بعثه الله من أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يُؤْمَرون، فمن جَاهَدَهُمْ بيده فهو مؤمن ومن جَاهَدَهُمْ بلسانِهِ فهو مُؤْمِنُ، ومن جَاهَدَهُمْ بقلبِه فَهُوَ مُؤْمِنُ، وليس وراءَ ذلك من الإيمانِ حبةُ خَرْدَل"(٢).

وإذا كانت نتائج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الفوز والفلاح والنجاة من غضب الله وعذابه، فإن ترك القيام به يفضي إلى عواقب ليس وراءها مجال للندم، بل وراءها الهلاك والضياع!

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ،كتاب الايمان ،باب كون النهي عن المنكر من الايمان ،ج١،ص٦٩،ح٤٩

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ،كتاب الايمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الايمان،ج١،ص٦٩،ح٥٠

أولاً: يترتب على ترك القيام بالنصيحة نقص الإيمان في القلوب، وتخلخل الحياة بالناس، فيصبحون ولا استقرار لهم، ويمسون ولا أمان عليهم، ويدعون ولا يستجاب لهم.

ثانيًا: يترتب على ترك القيام بالنصيحة، التعرض لعقاب الله العزيز الجبار، عن حذيفة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: "والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم"(١).

وأما حكم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فإننا نرى في قول الرسول الله ﷺ: "من رأى منكم منكرا فليغيره... إلخ" أمر إيجاب بإجماع الأمة، فقد تطابق على وجوبه الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

ثم قال الشيخ: والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به بعض الناس سقط عن الباقين، وإذا تركه الجميع أثم كل من تمكن منه بلا عذر ولا خوف، وقد يكون فرض عين، بأن كان الإنسان في موضع لا يعلم إلا هو أو لا يتمكن من إزالته إلا هو؛ كمن يرى زوجته أو ولده على منكر، فيحنئذٍ يتعين ويصبح فرضًا عينيًّا في عنقه، إن تساهل فيه وتخلى عنه، كان عليه إثم هذا المنكر.

ثم قال الشيخ: وليس لإنسان أن يمتنع عن بذل النصيحة وتوجيه الناس، لظنه أن النصيحة لا تفيد أو أن التوجيه لا يثمر، بل يجب عليه أن يقوم بالأمر، فإن الذكرى تنفع المؤمنين.

---

(١)أخرجه الترمذي في السنن في ابواب الفتن ،باب ما جاء في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ،ج٤،ص٤٦٨،ح٢١٦٩.

ثم بين الشيخ ضابطًا مهما في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال: يجب علي الداعي أن يتحرى الوقت الملائم والظروف المناسبة، قال الإمام الشافعي ﷺ: من وعظ أخاه سرًّا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد شانه.

ثم قال الشيخ: وتتمة لبحث النصيحة نرى أن نورد بعض الأحاديث النبوية الشريفة التي تتناول معالجة الموضوع من جميع أقطاره، وتكشف لنا عن بعض الزوايا المهمة، التي يجب على المصلحين ودعاة الأخلاق والمربين أن يراعوها ويضعوها نصب أعينهم. فوضع الشيخ الخلاعة كمنوذج للانحراف الأخلاقي، وكيف تناولت السنة معالجة هذا الموضوع من جميع أقطاره.

فقال الشيخ: لقد حذر الإسلام من الخلاعة وعمل على مقاومتها، وتقبيح حال من يجاهر بالرذيله، أو من يتحدث عنها، فعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح- وقد ستره الله- فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره الله ويصبح يكشف ستر الله عنه"(١).

وفي هذا الحديث يكشف لنا الرسول صلوات الله وسلامه عليه عن موطن من أشد مواطن العيب في الإنسان، وهو: الاستخفاف بالذنب، والإتيان به دون مبالاة، بل تستبد بالمذنب الوقاحة إلى حد يضاعف فيه الذنب، حيث لا يكتفي بارتكابه بل يتحدث به ويجاهر. والمجاهر هو: من أظهر المعصية، وتحدث بالخطيئة دون مداراة أو تحرج.

وقد جاء التعبير في الحديث بلفظ المجاهرين، هذه صيغة المفاعلة التي تقتضي المشاركة بين اثنين وهي ليست على بابها، ولا يترتب الجزاء المنصوص عليه في الحديث

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الاداب باب ستر المؤمن علي نفسه،ج٨،ص٢٠،ح٦٠٦٩.

على اشتراك اثنين، وإنما يكفي مجرد الإعلان بالمعصية من الشخص وحده، ولكنه آثر التعبير بتلك الصيغة التي تفيد اشتراك الطرفين، مبالغة في مادة الفعل ومعناه؛ فإن المجاهر يدعو إلى الرذيلة بلسان حاله، حيث يتأثر به غيره، وتسري عدواه في المجتمع. ولذا استثناه الرسول ﷺ من العفو الذي شمل جميع الأمة في قوله: كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وكلمة "معافى"– أيضًا– جاءت على صيغة المفاعلة وهي إما في العافية، أي: السلامة. وإما من العفو، أي: المغفرة فعلى المراد أنها من العافية: فالمراد أنه ينجو من أذى الناس، وينجو الناس من أذاه، قولاً كان ذلك أو فعلاً. وعلى أنها من العفو: فالمراد: كل من وجد من الأمة، يعفو الله عنه، ويغفر ذنبه إلا المجاهرين. ولا مانع من إرادة المعنيين. وإنما كان المجاهرون بمنأى عن فضل الله ورحمته لاستخفافهم بالذنب، ودعوتهم غيرهم إلى المحاكاة، والتأثر بهم.

ثم وضح الشيخ وضرب الحديث مثلاً لما يقول به المجاهرون: "وإنّ من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً... إلخ". والمجانة: هي الخلاعة، وعدم المبالاة، فالماجن إنسان بليد الشعور، غليظ الإحساس، فلا يُبالي بما يأتيه قولاً كان أو فعلاً، وفي بعض روايات الحديث: وإن المجاهرة، ولكن الرواية الأولى أكثر دلالة وأوضح؛ لأنها تدل على إظهار المعصية، وعلى التلبس بأعمال المُجّان.

"والبارحة": هي الليلة التي مضت، وسبقت اليوم الحاضر "ويا فلان" كناية عمن يتكلم الماجن إليه.

"وكذا وكذا" من ألفاظ الكنايات، ويكني بها هنا عما صدر من العاصي. وجملة "وقد بات يستره ربه... إلخ" جملة حالية أفادت وقاحة صاحب الفعل، وبشاعة ما يفعله، حيث لم يقابل الستر بالشكر، وإنما تمرد على فضل الله ونعمته.

وإنما كان غير المجاهر أهلاً لفضل الله تعالى، لأنه دل بتركه على حيائه، والحياء لا يأتي إلا بخير، فيترتب على ذلك إنكاره هذا العمل، وتقبيحه والإقلاع عنه.

أو أن عدم المجاهرة طريق المقاومة، وحصر المعصية في نطاق ضيق حتى لا تظهر فيستسيغها البعض. وهذا العفو لغير المجاهر إنما هو مقيد بمن تاب إلى الله تعالى، مستشعرًا خطأه مقلعًا عنه، أما إذا تكرر العصيان منه فلا يدخل في نطاق هذا العفو مهما خفيت معصيته واستترت.

وليس في الحديث ما يوهم إتيان المعاصي سرًّا دون حرج ما دام الإنسان غير مجاهر، بل إن الحديث يقاوم وقاحة البعض وخلاعتهم، ويسجل عليهم هذا الجو الشنيع حتي يتركوه، وحتى لا يقع فيه سواهم حين يعلمون مغبة أمره، وسوء عاقبته.

ويوضح في نفس الوقت شمول رحمة الله- تعالى- غير المجاهرين: روي أن رجلاً سأل ابن عمر: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: "يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه، فيقول: عملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم. فيقرره، ثم يقول: إني سترت عليك في الدنيا فأنا أغفرها لك اليوم"(١).

وأما المجاهر فلم يكن أهلا لفضل ربه، لاستهتاره وعدم مبالاته، وتمرده على نعم الله تعالى وتجرئه، فعمل على إشاعة الفاحشة بين المسلمين، والله- تعالى- يقول: {**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**} (النور: ١٩).

ويدخل في نطاق هذا الذنب- أيضًا- ما إذا تحدث عن أمر حلال، مما لا يصح الحديث فيه ولا إعلانه بين الناس، كالأمور التي تجري بين الرجل وزوجته من أحوال المعاشرة الزوجية، وقد يترتب على مثل ذلك من المفاسد ما لا تحمد عقباه.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المظالم ،باب قوله تعالي الا لعنة الله علي الظالمين،ج٣،ص١٢٨،ح٢٤٤١

كما أن المسلم مطالب أيضًا بستر عورة أخيه المسلم، قال ﷺ: "من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا موؤودة"(١). وهذا لا يمنع النصح له وإرشاده إلى طريق الصواب.

ولكن هل استثناء المجاهرين من فضل الله في هذا الحديث قائم على عمومه مطلقًا وأنه بعيد عن عفو الله؟

يقول الشيخ: وللإجابة على هذا السؤال نقرأ قول الله تعالى: {**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**} (الزمر: ٥٣).

فنرى أن الآية الشريفة، قد عالجت الضعف النفسي الذي قد يعتري بعض النفوس، وخلصت الإنسان من آفة اليأس والقنوط من رحمة ربه، وعلى هذا فإن المجاهر إذا عاد إلى ربه تائبًا مخلصًا غفر ذنبه ودخل في نطاق رحمة الله تعالى.

والآن، إذ وضع لنا الإسلام تحذيرًا من الخلاعة والمجون، والاستهتار بالرذائل، والمجاهرة بها، فما أشد حاجة المجتمع الإسلامي اليوم إلى من يأخذ على أيدي العابثين بقيم الدين، والذين يأتون المنكر على مرأى من الناس وفي كل مكان، على صورة التهاون حينًا، وعلى صورة المدنية البغيضة حينا آخر، فمن الرقص إلى احتساء الخمر، إلى غير ذلك من المنكرات، إن مقاومة كل ذلك هو واجب على كل مسلم.

ثم قال الشيخ: قد تبين من ثنايا الحديث رحمة الرسول ﷺ بأمته حيث عمل على تجنيبها من الوقوع في الشر، أو التردي في وحل المعصية، وصدق الله إذ يقول: {**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِين**} (الأنبياء: ١٠٧).

نموذج آخر من أمهات الأخلاق في الإسلام التي ساقها الشيخ في كتابه الأخلاق في ضوء القرآن والسنة، وهو خلق السماحة.

---

(١) اخرجه ابو داود في السنن ،كتاب الاداب،باب الستر علي المسلم ،ج٤،ص٢٧٣،ح٤٨٩١

يقول الشيخ: من أبرز سمات التشريع الإسلامي: سماحته ويُسر أحكامه، فليس فيه حرج ولا مشقة، ولا عسر ولا تنفير، بل فيه اليسر والرحمة والتبشير. والذي يتصفح تعاليم الاسلام يرى هذه الحقيقة واضحة بأجلى معانيها، وأوضح صورها ونماذجها في العقيدة والعبادة والمعاملة.

ثم قال الشيخ: أما سماحته في العقيدة، ففي أنه ليس فيها تعقيد ولا غموض، ولا نظرية جانحة ولا فلسفة حائرة، بل تتركز عقيدته في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره حلوه ومره.

وليس في عقيدته إيمان بما جاء به البشر، بل إيمان بما أنزله الله على رسوله؛ {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} (البقرة: ٢٨٥).

وليس في عقيدته عصبية ممقوتة، بل احترام لما أنزله الله وإيمان به، واحترام لجميع رسل الله تعالى، وإيمان بهم دون تفريق بين أحدٍ من رسلهِ.

ثم قال الشيخ: وأما سماحته في العبادة فبأنها عبادة ميسورة، في وسع أي إنسان أن يأتي بها، فلا صعوبة فيها ولا مشقة، فلم يكلف الله- تعالى- عباده إلا بما هو في وسعهم. {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} (البقرة: ٢٨٦).

وقد شرع الله العبادة وأحكامها، ومع يسرها، فقد رفع الحرج عنها: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ

عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} (الحج: ٧٨).

ثم بين الشيخ مظاهر السماحة في العبادة فقال: فمن مظاهر السماحة في العبادة أنه من لم يستطع الوضوء بالماء لتعب أو مرض أو جرح يمنعه من الماء، أو لأنه لم يجد الماء بل فقده، شرع الله له التيمم بالتراب الطاهر، قال الله تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}** (المائدة: ٦).

وشرع الله الصلاة وما فيها من قيام وقعود، وركوع وسجود، ومع يسر هذه العبادة فقد رفع الحرج عنها، ورخص لغير القادر على القيام أن يصلي من قعود، ولغير القادر على أدائها من قعود أن يؤديها مضطجعا، ولغير القادر على أدائها مضطجعا أن يؤديها بإشارة رأسه، ولغير القادر على ذلك أن يشير برموش عينه، ولغير القادر على ذلك، يجري أركان الصلاة على قلبه، ولا يتركها ما دام عقله ثابتًا، لأنها الصلة بينه وبين خالقه، فانظر إلى أي مدى وصل التيسير ورفع الحرج، أن يكتفي بأن يجري الأركان على قلبه عند عجزه عن الحالات السابقة، إنها الرحمة الإلهية؛ **{يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}** (البقرة: ١٨٥).

ثم بين الشيخ السماحة في الصيام، فقال: لقد رخص الله تعالى للمريض والمسافر سفرًا طويلاً أن يفطر، ويقضي الصوم في أيام أخر، قال تعالى: **{أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}** (البقرة: ١٨٤).

وكذلك رخص للحامل والمرضع الإفطار والقضاء في أيام أخرى.

ثم قال الشيخ: وأما في الحج، فإنه لم يشرعه في كل شهر ولا في كل سنة، بل أوجبه الله- تعالى- مرة واحدة في العمر كله، ولم يفرضه على الجميع بل على المستطيع فحسب، قال الله سبحانه: {**فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**} (آل عمران: ٩٧).

وكأن الشيخ يلمح إلى الحديث الذي أخرجه أبو داود والنسائي والدارمي والدارقطني والحاكم وأحمد من طرق عن الزهري عن أبي سنان عن ابن عباس قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: "يا أيها الناسُ كُتبَ عليكمُ الحج" قال: فقام الأقرع بن حابس فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ فقال: "لو قلتها لوجبت ولو وجبت لم تعملوا بها ولم تستطيعوا أن تعملوا بها، الحجُ مرةُ فمن زاد فهو تطوع"[(١)].

ثم قال الشيخ: وإذا نظرنا إلى سماحة الإسلام في المعاملات، وجدنا الهدي النبوي يرشد إلى السماحة في كل المعاملات من بيع أو شراء أو اقتضاء، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "رحم الله رجلاً سمحًا إذا باع، وإذا اشترى وإذا اقتضى"[(٢)].

وإقرارًا لروح السماحة والتراحم بين العباد في معاملاتهم، ينبئنا الرسول- صلوات الله وسلامه عليه- عن ثمرة ذلك في الآخرة، حيث يتجاوز الله- تعالى- عن عباده الذين يتجاوزون ويتسامحون مع عباده، روى البخاري بسنده أن حذيفة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: "تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم، فقالوا: أعملت من الخير

(١)اخرجه مسلم في صحيحه ،كتاب الحج،باب فرض الحج مره واحده في العمر،ج٢،ص٩٧٥،ح٣٣٧.

(٢)اخرجه البخاري ،كتاب البيوع، باب السهوله والسماحه في الشراء والبيع،ج٣،ص٥٧،ح٢٠٧٦

شيئًا؟ قال: كنت آمر فتياني أن يُنظروا الموسِر ويتجاوزوا عن المعسر، قال: قال: فتجاوزوا عنه"[1].

وكما راعى الإسلام السماحة في العقيدة والعبادة والمعاملات، فإنه راعى السماحة في معاملة المسلمين لغيرهم، فقال سبحانه: {**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**} (الممتحنة: ٨).

بل قرر الإسلام حماية أهل الذمة والمستأمنين ما داموا في دار الاسلام، وهذا الحق الذي قرره الإسلام لحمايتهم، يجب أن يعمل به أهل الأديان الأخرى في معاملة الأقليات الإسلامية، حماية لهم وتمكينًا لعبادتهم حتى يتم التعاون بين عنصري الأمة.

ولتنظر كيف أكد الإسلام على حقوق أهل الكتاب والمعاهدين، قال رسول الله ﷺ: "ألا من ظلم معاهدًا أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ شيئًا بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة"[2].

ومن وصايا سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ: أوصيكم بذمة الله فإنه ذمة نبيكم ورزق عيالكم. وإرساء لأسس التعاون والتواصل بين عنصري الأمة أحل الله طعامهم فقال: {**الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**} (المائدة: ٥). كما شرع الزواج بالمرأة الكتابية، ولا رابطة في الظواهر الاجتماعية أقوى من ذلك.

---

(١)اخرجه البخاري كتاب البيوع ،باب من انظر موسرا ،ج٣،ص٥٧،ح٢٠٧٧

(٢)اخرجه ابو داود في السنن ،كتاب الخراج والاماره،باب تعشير اهل الذمه اذا اختلفوا، ج٣،ص١٧٠،ح٣٠٥٢.

ثم قال الشيخ: وإذا كان التسامح وحسن المعاملة وعدم التعصب، أمورًا مطلوبة من المسلمين في معاملتهم مع غير المسلمين، فإنها كذلك مطلوبة من غير المسلمين مع المسلمين، حتى تتم معاملة كل طرف للآخر في دائرة التعاون والتضامن، فلا يسئ أحدهم إلى الآخر، بل يتعاملون بروح الفريق الواحد في الوطن الواحد.

ثم استطرد الشيخ قائلاً: إن سر انتشار الإسلام واعتناق الناس له، ودخولهم في دين الله أفواجًا، هو منهاجه الرباني، الذي أنزله رب العزة- سبحانه وتعالى- على رسوله- صلوات الله وسلامه عليه- هذا المنهاج الذي أمر الله- تعالى- فيه بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، إنه منهج دعوة، وليس إكراهًا ولا تشددًا ولا عنفًا، قال الله تعالى: {**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**} (النحل: ١٢٥).

وما أقر الإسلام العنف ولا التشدد، قال تعالى: {**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيم**} (البقرة: ٢٥٦).

وقال الله لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون الذي ادعى الألوهية: {**فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**} (طه: ٤٤)، وعندما خافا أن يبطش بهما، بين الله تعالى أنه معهما يسمع ويرى ويؤيدهما في دعوتهما، فالله سبحانه يؤيد كل داع يستجيب لمنهاجه، ويدعو بالقول اللين الذي لا ينفر، فقال تعالى ردًا عليهما: {**قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى**} (طه: ٤٦).

وقد ضرب رسول الله- صلوات الله وسلامه عليه- أروع الأمثلة في التسامح، وكان لين الجانب، طيب المعاملة، سمحًا في كل الأمور حتى مع أعدائه الذين حاربوه من قبل، كما حدث مع ثمامة بن أثال الذي عرض الرسول ﷺ عليه الإسلام مرات، وكان لا يقبل في كل مرة، حتى أمر النبي ﷺ بإطلاق سراحه، فكان هذا العفو والتسامح سببًا في

دخول الرجل في الإسلام، فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وأقر الرجل بما كان عليه قبل هذه المعاملة السمحة من قبل من عداوة وكراهية الإسلام؛ فقال: إنه ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك وقد أصبح أحب البلاد إليّ، وما كان من وجه أبغض إليّ من وجهك وقد أصبح أحب الوجوه إليّ، وما كان من دين أبغض إليّ من دينك وقد أصبح أحب الأديان إليّ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله[1]، ودخل الإسلام بفضل سماحة النبي عليه الصلاة والسلام.

من أجل هذا قاوم الإسلام العصبية ودعا إلى التسامح، ففي الحديث: "ليس منا من دعا إلى العصبية"[2] ولم يقتصر تسامح الإسلام مع أهل الكتاب فحسب، بل إنه شمل حتى المشركين، قال تعالى: {**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ**} (التوبة: ٦).

بل إن الاسلام يعتبر ضرب الإنسان الفاجر أو المعاهد دون ذنب أو سبب جريمة يتبرأ الرسول ﷺ من صاحبها فيقول: "ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده فليس مني ولست منه"[3].

ثم يقول الشيخ: وذلك حتى لا يأخذ الناس بعضهم بعضا بالظن، وحتى لا تكون الحياة فوضى، فالإسلام لا يقر الظلم والعدوان حتى على الفاجر أو المعاهد، فالفاجر فجوره على نفسه وحسابه على الله، ولسنا مطالبين حياله إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبمراتب مقاومة المنكر التي أخبر بها الرسول ﷺ حين قال: "من رأى منكم

---

(١) اخرجه احمد في المسند ،ج١،ص٧٤،ح٧٣٦١ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الاماره باب الامر بلزوم الجماعه عند ظهور الفتن ،ج٣،ص١٤٧٦،ح١٨٤٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ،باب كون النهي عن المنكر من الايمان،ج١،ص٦٩،ح٤٩

منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"[1]. وليس لأحد كائنًا من كان أن يعطي نفسه الشرعية والحق في ضرب الناس، أو إكراههم باسم الإسلام، فإنه بهذا التصرف يسيء إلى الإسلام وإلى سماحته.

ثم قال الشيخ: هذا وقد عُني الإسلام برعاية أهل الكتاب، فقرر سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ لهم كفالة في بيت المسلمين، فقد روي أنه مر بباب جماعة فوجد سائلا يسأل... وهو شيخ كبير ضرير- فسأله قائلاً: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال:- يهودي- فسأله: ما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: الجزية والحاجة والسن، فأخذ عمر بيده إلى منزله وأعطاه، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال له: انظر هذا وأضرابه، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته، ثم نخذله عند الهِرم.

وما حدث في تاريخ سلفنا إهانة أحد من أهل الذمة، بل إن حدث أي تجاوز كان يعالجه الإسلام في الحال، فعندما شكا إلى عمر أحد الأقباط ابن والي مصر- عمرو بن العاص الذي لطم ابنه عندما غلبه ابن القبطي في السباق وقال: أنا ابن الأكرمين، أسرع عمر ﷺ إحضار والي مصر وابنه إلى مكة في موسم الحج وأعطى الدِّرة لابن القبطي وأمره أن يقتص من ابن الأكرمين، ثم قال لعمرو كلمته المأثورة: متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟

ثم استطرد الشيخ قائلاً:... وقد أقام الإسلام العدل بين عنصري الأمة من المسلمين ومن غير المسلمين، ومن رسالة سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ إلى قاضي القضاة أبي موسى الأشعري قال له: آس بين الناس في وجهك ومجلسك وقضائك، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك.

فلا تصح التفرقة بين المتخاصمين، حتى ولو كان أحدهما غير مسلم، وقد روي

(١) سبق تخريجه في ص ٣٢١.

أن يهوديًّا خاصم سيدنا عليًّا بن أبي طالب ﷺ إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فنادى أمير المؤمنين عليًّا ﷺ بقوله: قف يا أبا الحسن، فبدا الغضب على علي ﷺ، فقال له عمر ﷺ: أكرهت أن نسوي بينك وبين خصمك في مجلس القضاء، فقال علي ﷺ: لا، ولكني كرهت منك أن عظمتني في الخطاب فناديتني بكنيتي ولم تصنع مع خصمي اليهودي ما صنعت معي.

وهكذا نرى كيف عامل سلفنا أهل الكتاب، وكيف أظهروا سماحة هذا الدين الذي لا يقر العصبية، ولا يرضى الظلم حتى لغير المسلمين، بل يدعو إلى التسامح والعدل معهم، وهذا المنهاج المتسامح للإسلام مع أهل الأديان الأخرى هو سر عظمة الإسلام، وسر ذيوعه وانتشاره في ربوع المعمورة.

obeikandl.com